مجلّة انـــتـحـــــــاء

Intihaa Journal

Available online at: intihaa@ens-ouargla.dz

المجلد (02) العدد(01)(2025): رقم صفحة البداية31 – رقم نهاية الصفحة46 ISSN :2992-1546

فتنة الكتابـة الروائيــة فــي ظلّ الـجائحة بين عزلة الجسد وتحرّر الذّات

رواية "ليليات رمادة "لواسيني الأعرج" أمثولة

The Seduction of Novelistic Writing in the Shadow of the Pandemic: Between Bodily Isolation and the Liberation of the Self Novel" Ramadah Nights" by Waciny Laredj as an Exemplum

أ.د. آسية متلف

جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف- الجزائر

metlef.assia@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/03/20 تاريخ القبول:2025/04/04 تاريخ النشر:2025/04/20.

ملخص:

ترنو هذه المداخلة التي وسمناها بـ" فتنة الكتابـة الروائيــة فــي ظلّ الـجائحة بين عزلة الجسد وتحرّر الذّات " رواية ليليات رمادة لواسيني الاعرج أمثولة، إلى استجلاء طبيعة الكتابة الروائية المبدعة والتي تجسدت كفعل علاجي مقاوم للشرط التاريخي الزمني من جهة وفعل تجاوز للحتمية الوبائية التي نعيشها ونتمنى اندثارها من جهة ثانية من خلال استدعاء نص ولد من رحم الجائحة وظهرت ملامحه الأولى على صفحات الفيسبوك وهو"رواية "ليليات رمادة" لواسيني الاعرج الذي أبى إلاّ أن يشارك قراءه تفاصيل حكايته فالي أي مدى استطاع الروائيون عامة و واسيني الأعرج خاصة مواجهة خوفهم وتحدي الوباء بالكتابة والفن والإبداع.

الكلمات المفتاحية: الكتابة الروائية _جائحة كوفيد19_عزلة الجسد-تحرّر الذّات.

Abstract

This intervention, titled "The Seduction of Novelistic Writing in the Shadow of the Pandemic: Between Bodily Isolation and the Liberation of the Self" Novel "Ramadah Nights" by Waciny Laredj as an Exemplum aims to explore the nature of creative novelistic writing as a therapeutic act resisting the constraints of historical and temporal conditions on the one hand, and as an act of transcending the deterministic reality of the pandemic on the other. This is done

through the examination of a text born from the very heart of the pandemic, whose first features appeared on the pages of Facebook: Novel "Ramadah Nights" by Waciny Laredj as an Exemplum, who insisted on sharing the details of his story with his readers. To what extent, then, have novelists in general—and Waciny Laredj in particular—been able to confront their fears and challenge the pandemic through writing, art, and creativity?

Keywords: Novelistic writing, COVID-19 pandemic, bodily isolation, self-liberation**.**

1.مقدمة

إنّ المتأمّل في سجل السرديات العالمية يجدها تحفل بما يعرف بأدب الأوبئة أو أدب الكوارث والذي لم يُعترف به إلاّ في ستنيات القرن الماضي كرواية عيون الظلام لدين كونتز 1981، ورواية "الإنسان الأخير" "لماري شيلي عام 1862، العمى "لخوسيه ساراماغو ولعل روايتي "الحب في زمن الكوليرا "للكاتب الكولمبي "غابريل غارسياماركيز1985 و"الطاعون "لالبير كامو(1913-1960) من أشهر النصوص التي جمعت بين التخييل والواقع الصادم المحتدم بين قوى خارقة يلعب فيها الوباء دور البطل، كما تمثّل صرخة وجودية وتعبيرا عن عبثية الحياة .

إلاّ أنّنا وفي هذا الزمن لم نسلم مما أصيبت به الأمم الغابرة، فقد هتك حياتنا وباء لعين هزّ موازين القوى في العالم أجمع وأعاد صور مواجهة الخوف والموت يقول الفيلسوف "أبيقور "قديما" يمكن للإنسان أن يكون في مأمن من كل شيء سوى الوباء، فأمامه يعيش كل البشر في مدينة لا أسوار لها"، فبات هدف الخلاص هدفا إنسانيا مشتركا بين جميع البشر.

ففي ظلّ وجودنا على حافة عصر نجهل وجهته اختلفت أنواع المواجهة باختلاف صنوف البشر، إلاّ أنّ المثقف العربي جاء في الصفوف الأولى مواجها لهذا الوباء بمشاريعه الفكرية وكتاباته الأدبية، التي باتت المتنفس الوحيد للخروج من سجن العزلة الإجبارية التي حكمت بها الجائحة على ذوات البشر.

ومن أهم التجارب الإبداعية تميّزا في ظلّ هذه الجائحة رواية "ليليات رمادة" لواسيني الأعرج الذّي جرفه موج الكتابة الروائية حتى صار من أغزر الروائيين إنتاجا، وإن نالت أعماله هذه الشهرة فلأنّه قصاص حكاء بالطبع والسّجية، لا تنفك تنتابه حمى الحكايا القصصية وتتناوبه مخاضات الأقاصيص المخبوءة كنوزها في المعيش اليومي والإدراك

الفني وفي الذاكرة الجريحة وفي الوعي الشّقي، ومع ذلك فإنّ سؤال الكتابة يؤرق أديبنا الذي يأخذ على عاتقه وبكل صرامة رسم الشخوص وحبك المصائر.

نسج واسيني خيوط حكايته هذه ليحارب قلقه فقد باتت الكتابة عنده وسيلة للحياة وهروب من الموت خصوصا وانّ جميع من حوله كانوا يعيشون حالة خوف وذعر مما يمكن أن يصيبهم جراء انتشار الوباء التاجي اللعين ،فصدرت روايته عن دار الآداب ببيروت في شهر أكتوبر الفارط، إلاّ أنّه سبق وأن نشرها في صورتها الأولية على صفحته الفايسبوكية من خلال حلقات متتالية، أشرك فيها قراءه وراقب ردود أفعالهم من خلال تفاعلهم معه وتوقّع نهايتها ليكتمل النص بعد أربعة أشهر من بداية الجائحة

_فكيف يمكن لفعل الكتابة أن يكون فعلا علاجيا يتجاوز صدمة هذه الجائحة؟

_ما طبيعة التناول الأدبي للأزمة الراهنة ،هل هي كتابات آنية مستعجلة أم هي تسريد للزمن؟

_هل استطاعت الجائحة أن تمنح ذوات الكتآب المحكومة بالحساسية المفرطة اتجاه الأشياء فرصة استثمار فترة العزل الإجبارية أو كما يسميها واسيني الانكفاء للكتابة؟

_ إلى أي مدى استطاع واسيني الأعرج مواجهة خوفه وتحدي الجائحة بالفنّ والجمال والإبداع

أولا :الكتابة في زمن الجائحة بين المواجهة والمجابهة :

نودّ في بداية حديثنا عن الكتابة في زمن الجائحة ومدى مشروعيتها ونجاعتها كفعل علاجي يتجاوز الكتآب من خلاله هذه الصدمة في محاولة الخلاص من خلال الفن والإبداع وإحداث المتعة لدى المتلقي وإخراجه من هول الموت والخوف أن نعرّج إلى ما أشار إليه رولان بارت في حديثه عن فعل الكتابة الذي ربطه بمفهوم اللّذة في كتابه "لذّة النص" فهو ينظر إليها على أنّها ليست مجرد وسيلة للتواصل، ولا هي ذاتية الكاتب وإنّما استخدام خاص للغة فيه الكثير من الإيحاء والتّمرد على المألوف والخيال والتّلذذ والمتعة، فينغمس الكاتب في لذّته النصية مستمتعا بالقراءة والكتابة ،فيرى أنّ لذة الكاتب تتمثل في بحثه عن القارئ وفي خلقه لفضاء المتعة ففي الفضاء إمكان لجدل الرغبة وإمكان أيضا لفجاءة المتعة "(بارت،1992، ص25) ولهذا فإنّه يقع على عاتق الكتابة أن تعطي الدليل للقارئ بأنّ النص يرغب فيه وعلاقة الكتابة باللّذة لا تخص نصوص المتعة أو الكتابة الشبقية على حدّ تعبيره ، بل تتعلق بالكتابة عموما ولهذا يتحوّل بارت من اهتمامه بنص اللذة إلى الاهتمام بلذّة النص إلى حد يعرّف فيه الكتابة بأنّها

"علم متعة الكلام"[1] وتتحدد خصوصية الاختلاف بين نص اللذة نص المتعة في أنّ" نص اللّذة:هو النص الذي يرضي، فيملأ ، فيهب الغبطة إنّه النص الذّي ينحدر من الثقافة، فلا يُحدث قطيعة معها ويرتبط بممارسة مريحة للقراءة، أمّا نص المتعة فهو الذّي يجعل من الضياع حالة وهو الذّي يحيل الراحة رهقا فينسف بذلك الأسس التاريخية والثقافية والنفسية للقارئ نسفا، ثم يأتي إلى قول أذواقه وقيمته وذكرياته فيجعلها هباءً منثورا، وإنّه ليظل كذلك حتى تصبح علاقته باللغة أزمنة "[2]

إنّ غايتنا في طرح هذه الفكرة هي بداية إشكالية مهمة بتنا نصادفها على صفحات مواقع التواصل الاجتماعي ومطارحات لنقاد وروائيين عرب في مؤتمرات افتراضية تأخذ صفة المدّ والجزر حول حقيقة الكتابة الإبداعية في ظلّ هذه الجائحة، فهناك من يشير بأنّ الكتابة في هذه الظروف هي كتابة آنية مستعجلة لن تحقق تلك اللّذة التي تحدث عنها بارت في مفهومه للكتابة لذا يجب التّريث إلى ما بعد الجائحة، في حين يؤكد البعض الآخر أنّ الكتابة في هذه الظروف هي حتمية ثقافية ومرجع مهم للأيام المقبلة كما أشار الروائي المصري "منير عتيبة"

ولكي نحدد أبعاد هذا المدّ والجزر بين المثقفين والمبدعين العرب حاولنا رصد آراء بعضهم حول الكتابة الروائية في ظلّ هذه الجائحة من خلال تتبع مشاريعهم الفكرية والأدبية في فترة الحجر الصحي ليتسنّى لنا تشكيل منطلق ننطلق منه لتوضيح مدى فاعلية الكتابة كفعل علاجي مقاوم ومتجاوز للحدث، والى أي مدي أصبحت الجائحة تيمة مهمة للكتابة الأدبية في هذا العصر .

ففي سياق حديثنا عن الكتابة الروائية في خضم هذه الجائحة يشير الناقد محمد عبد الله القواسمة أنّ التجارب الروائية قد أظهرت صعوبة الكتابة عن الأحداث الجارية لانّ الروائي يحتاج إلى فهم ما يجري والإحاطة به ومعرفة تجليات الظاهرة ونضوجها ليكتب عنها، فهو بخلاف الشاعر الذّي يعبّر عن وجع اللحظة، إنّه يروي وجع بالماضي أو الحاضر الذّي يصبح ماضيا بمجرد الكتابة فإذا كان الشعر وليد الفعل "يكون"؛ فإنّ الرواية وليدة الفعل كان لهذا فنحن لا نستطيع أن نفسر لماذا يكثر الشعر في هذا الوقت الكوروني الذي يتجول فيه الفيروس بحرية بين الناس، إنّنا ننتظر بعد هدوء عاصفة كورونا أن تظهر روايات تتحدث عن هذا الوباء "كان يا مكان "ويخفت صوت الشعر "يكون.[3]

أماّ في الندوة العلمية التي عقدها مختبر السرديات الأردني عبر تقنيات التواصل عن بعد بعنوان "تسريد الأزمنة في مواجهة أم مجابهة أزمة كورونا أنموذجا" والتي شارك فيها مجموعة من الروائيين العرب والأوروبيين أشاروا إلى مدى نجاعة الفنان في تحويل فيروس كورونا إلى لحظة إلهام فني وجمالي، فقد أشار الروائي والشاعر **"جلال برجس"** إلى أن فيروس كورونا دفع الإنسان إلى شكل غريب من أشكال العزلة التي تقترب من ملامح سجن يرافقه خوف من الحاضر وترقب لما سوف يؤول إليه المستقبل، مشيرا إلى أنّ الكتاّب هم الذين يطلقون الأسئلة دوما في نتاجاتهم الإبداعية يرضخون كغيرهم تحت وطأة العزلة ولهذا تأتي **الكتابة كخيار** مهم وتساؤل ولكن إلى أي مدى يمكن أن تنجح تلك الكتابات الآنية في التّطرق لما فعله هذا الفيروس بالإنسانية ؟[4]

في حين أشارت الروائية الفرنسية آن بوريل إلى أن "الكتاّب قد اعتادوا على **العزلة** لأجل الكتابة الإبداعية لكن عزلة "فيروس كورونا "تختلف عما اعتدنا عليه ،فنحن أمام الخوف من المجهول والمعاناة والمرض في هذه الحالة الجديدة والمختلفة كيف تكتب؟" وتشير بعد ذلك الى أنّها انقطعت عن كتابة الرواية لهول ما وصل اليه الواقع الذي لم تتخيّله يوما ولكن سرعان ما عادت إليها ولكن بوعي جديد فرض عليها الكتابة عن الفيروس والنظر له من زاوية مختلفة ليتسنى لها فهم ما يحدث أولا ومن ثم كتابته.[5]

غير أنّ العزلة التي طالما كانت من أهم شروط للكتابة الإبداعية، إذ كان الكتّاب ينعزلون بإرادتهم ليحققوا إبداعاتهم ،أما الآن فهي عزلة لاإرادية لا ندري انعكاساتها هي عزلة فرضتها قوانين الطبيعة وليست عزلة اختيارية ورغم هذا إلاّ أنّها _العزلة_تشكّل فرصة للكتابة والتّأمل في أعماق الذّات، وصحيح أنّ الحجر الصحي هو عزلة غير مرغوب فيها ،إلاّ أنّه يجبر الذّات الكاتبة في البحث عن حقيقة ما يحدث وتسريد الزمن وهي فرصة للاختلاء بالذّات وتفريغ مكنوناتها وإعادة تشكيل رؤية جديدة حول العالم لذا تصبح الكتابة الحل الأمثل للخلاص.

ومن جانبه، رأى الروائي والقاص الأردني الياس فركوح "أنّ عزلتنا هذه تشبه مكوث إنسان في بطن الحوت، فكيف يمكن لهذا الإنسان أن يكتب عما هو فيه وهو لا يرى غير الظلمة"[6]، معتبرا الكتابة الآن عن "فيروس كورونا"،ربما يكون غير دقيق، ولكن ستظهر بعد الانتهاء من هذه الجائحة كتابات ستأخذ شكل النص الحر المفتوح المحمّل ببنى

معرفية وتساؤلات وجودية حيال ما يمر به الإنسان، مبينا أن هذا الفيروس وضع الإنسان أمام سؤال الوجود في ظلّ الرعب الذي يعيشه العالم.

أما الروائي الروائي الجزائري "الحبيب السائحي فقد أبدى رأيه في الموضوع قائلا :" أنا شخصيا أجدني مرتبكا جدا أمام هذا الطارئ الكارثي وأشعر أنّي لا أملك اللغة التي بها أواجه، لعل أهم شيء يمكن للكاتب أن يقدّمه هو أن يكون صادقا مع نفسه لأنّها فرصة للنقد الذاتي، والناقد العربي مطالب بالنّقد الذاتي"[7]، كما يشير أيضا إلى أنّ جائحة كورونا ستغيّر أيضا في رؤيتنا إلى وظيفة الكاتب وفي علاقتنا باللّغة ،فبأي لغة سنكتب غير لغتنا السابقة "أعتقد أنّ الرواية العربية ستتأثر جدا أو تتوسّع تيماتها لتشمل هذا الذّي يحدث للبشرية بلا تمييز في العرق أو الدين أو الإيديولوجية وستظهر بلا شك نصوص استعجاليه تسبق تلك النصوص التي ستأخذ مسافة زمنية استيعاب الصدمة فجائحة كورونا صدمة قوية جدا لأنّها تهدد حياة الناس بالفناء "[8]

وفي سياق مختلف، رأى الروائي السوداني طارق الطيب أن الكتابة في زمن "كورونا" تعد من أشكال مواجهة الخوف، والكتابة في "أثناء الحالة"، وتتعدد أشكالها مثل "اليوميات، المقالات، الشعر، القصة القصيرة"، ولكن لا أعتقد أنها تناسب الرواية في الزمن القصير، داعيا الى الكتابة المتأنية بعد خبرة وبعد زوال الحماس الثوري سواء مع أو ضد. وأوضح الطيب أن الكتابة تعتمد على الأثر "أثر العزلة، الخوف، المرض، الموت، النجاة.. الخ"، مبينا أن العزلة فرضت نمط تفكير جديدا من نوع فريد وغيرت الأدوار، ورأى الطيب " أن هناك أدباً متعلقاً بـ"كورونا" بالتأكيد سيجيء؛ أدب صافٍ عن الموضوع مباشرة، بينما أرى أنّ العالم العربي سيمزجه بالإطار الأخلاقي بالضرورة وبالمشكلات المزمنة التي يعاني منها العالم العربي بصفة خاصة [9]

إلا أنّ هذه المعطيات غير مسلّم بها حينما نتحدث عن الكتابة الروائية من منطلق أنّها ليست تسجيلا للواقع بل هي إعادة كتابة أو تشكيل للواقع بصور فنية وأفق تخييلية تبعدنا عنه كما هو وترسم لنا واقعا جديدا ينطلق في جزئياته مما نعلمه ونعيشه ونعايشه ولكن يصل بنا إلى مالا نعرفه بل نجهله، ففعل الكتابة هوس مشفوع بانعتاق المشاعر والأفكار في لحظات التحرر من الذّات، هي تعرية للروح بكل مكوناتها الثقافية والمنهجية بل نراها الوازع الأقوى الذي خوّل للروائي المضي قدما في سبيل طرح العديد من الإشكالات

الفكرية والفلسفية والنقدية، لذا نعتقد بأنّ هذه الجائحة ستسيل مداد العديد من الروائيين؛ إلاّ أنّها وبحسب رأينا ستحمل هذه الكتابات بعدا فلسفيا وجوديا فرضته الوحدة ونمط الحياة الجديدة ،فقد يأخذ أدب الجائحة بعدا فلسفيا لان الأمر متعلق بفعل التّخييل الناتج عن واقع معاش من خلال التّأمل في واقع الإنسان الحديث وطرح تساؤلات فلسفية عميقة للبحث عن حقيقة ما يحدث

ومما لا شك فيه أن الهدف الذي سيكون مشتركا بين جميع الروائيين أثناء الجائحة أو بعد زوالها هو تصوير النزعة الإنسانية والمصير المشترك والانتصار لإنسانية الإنسان بعيدا عن النرجسية وحب الذّات؛ فقد جاءت هذه الجائحة لتوقظ النفوس وتنبه الإنسان لأخطائه مع أخيه الإنسان، جاءت لتقلب موازين التناحر إلى أفق التصالح، وما على الروائيين إلاّ صياغة حكاياتهم ضمن أطر تخييلية مبدعة تُظهر الأمل كسلاح قوي لكسر الألم وترميم الذّات وإصلاح انكسارات الروح. فقد جاءت هذه الجائحة لتبحث عن "الإنسانية المفقودة ".

ولعل من أهم الأعمال الروائية التي ظهرت في خضم هذه الأزمة العالمية ما كتبه واسيني الأعرج "ليليات رمادة _كائنات كوفيلاند اليتيمة "الصادرة عن دار الآداب في شهر أكتوبر الفارط و قد سبق و أن نشرها في صورتها الأولية على صفحته الفيسبوكية من خلال حلقات متتالية أشرك فيها القراء و النقاد في قراءتها و حتى توقع نهايتها، يقول واسيني الأعرج في إحدى اللقاءات الحوارية الافتراضية التي نظمتها هيئة الأدب والنشر والترجمة في 7 يوليو2020، بأنّه حارب قلقه بالكتابة معتبرا إياها وسيلة للإنعتاق من الخوف والكآبة والموت خاصة وأنّ جميع من حوله كانوا يعيشون حالة ذعر وخوف وترقب يقول واسيني:"الطريقة المثلى لتزجية الوقت هي الكتابة، تحديدا كتابة شيء متعلق بالجائحة فعملت على كتابة رواية أنشر منها كل يوم خميس فصلا في الفايسبوك وأراقب ردود الأفعال من خلال تفاعل الناس معها بكتابة نهاية احتمالية بعد امتداد أربعة أشهر من بداية الجائحة"

ثانيا : ليليات رمادة " وتسريد الزمن على نوتات الموسيقى:

بعد قراءاتنا المتعددة لنصوص واسيني الأعرج الروائية تشكّلت بدواخلنا حقيقة بتنا نؤمن بها عند ولوجنا لقراءة أي رواية جديدة له من منطلق أنّه يعدّ أيقونة التجريب

والبحث عن القلق واستفزاز المتلقي بنصوصه التي تحمل في كل مرة ما يبهره ويوقظ دواخله وينتقد عالمه، والأمر كذلك في هذا النص الجديد الذي كتب في ظروف استثنائية إلاّ أنهّ لم يخلو من صفة التميّز والتّفرد على صعيدين أولهما **تسريد لزمن الوباء كوفيد 19** والكتابة في خضم الجائحة ، **وثانيهما مغامرته** بنشر كتاباته في الفضاءات الافتراضية كل ليلة خميس ليشارك قراءه ويسجل انطباعاتهم عما كتب بل ليشاركوه كتابة نهاية الرواية ليخفف عنهم بفعل القراءة مشاعر الخوف وانتظار ما سيكون؛ لذا جاءت الكتابة عند واسيني الأعرج في ظل الجائحة كفعل مغامر متجاوز للزمن بل كفعل علاجي يخفف من وطأة الألم والخوف والموت ففعل الكتابة لديه فعل مقاومة للشرط التاريخي الزمني من جهة وفعل تجاوز للحتمية الوبائية التي نعيشها ونتمنى تجاوزها من جهة ثانية.

عزف واسيني سنفونية روايته "ليليات رمادة" على شاكلة كثير من نصوصه الروائية التي اصطخبت بمظاهر التماهي والتواشج بين الرواية والفنون وخاصة الموسيقى التي تعدّ أرقى الفنون التعبيرية للتعبير عن المشاعر والعواطف ، فلم يتردد الروائي في بناء حيثيات روايته وعناصرها الداخلية والفصلية علي إيقاعات فريديريك فرانسوا شوبان Fréderic françoin chopin، وهو استدعاء مداره مقطوعات موسومة بنفس الاسم "ليليات شوبان" وهي مقطوعات عزف منفرد على البيانو عددها إحدى وعشرين معزوفة عزفها ما بين 1827-1864 والطريف في الأمر كما يشير عبد القادر الجريدي "أنّ صاحب النّص يُرفق مع كل ليلة عنوانا فرعيا هو في الأصل إحالة على مقطوعات موسيقية مُرقمة لم يعتمدها مُجرّد خلفيّة للنّص ولكنْ أزعُمُ ومن الزّعم التّأكيد أنّ المُوسيقى مثلت إيقاعا رئيسيا للعمل الروائي ليس يخلو من مغامرة من لا يحذر مآزقها لا يمكنه أن يأمن الوقوع في مزالقها. وكأنّ النّص لا يكتمل إلاّ بالتّفاعل مع هذه الوسائط والاستماع إلى ليليات شوبان موسيقى تصويرية للنص المكتوب."[10] ، فلطالما كانت الموسيقى من أكثر الفنون الجميلة تعبيرا عن البيئة التي احتضنتها وتعكس طابعها الحضاري والثقافي والفني " فمن أسمى مهام الموسيقى أن تعبر عن المجتمع في تعاقب الفترات التاريخية وإيصال هذا التعبير إلى مجتمعات إنسانية أخرى ومحاورتها وتبادل التأثير معها فيما يوافق أسلوبها وحضارتها الفنية ..."[11]

وتشترك الرواية والموسيقى في الطبيعة الزمنية التي تميّزها عن بقية الفنون ذات الامتداد الفضائي وهذا ما يؤكده الفيلسوف الألماني "لوسينق"بقوله :"إنّ الرواية فن

الزمن، مثلها مثل الموسيقى أما كل من "رولان بورتوف"و"وريا أوئيليه" في كتابهما عالم الرواية يسيران إلى أنّ الرواية " تعدّ قبل كل شيء فنا زمنيا بمستوى الموسيقى نفسها"[12]، أما كمال الريحاني فيشير "إلى أنّ المقطوعة الموسيقية مثلها مثل الرواية لا تتطلب لانجازها مساحات مكانية، إنّها فعل تصريف الزمن والتلاعب به والتّحكم في سيولته وتسلسله".[13]

استطاع واسيني الأعرج أن يقبض بمفاتيح روايته من خلال ذلك التواشج الفني والجمالي الذي نشأ بين عناصر العالمين

عالم الرواية /عالم الموسيقى

السرد / العزف

واسيني/ شوبان

الحجر المنزلي والعزلة/ العزف الفردي على آلة البيانو.

فتقسيم الرواية إلى مقطوعات موسيقية تتحكم فيها بوليفونية الأصوات وتغيّر الأحداث والتلاعب بالزمان وتغيير المكان مع ذلك التغيير الذي يمس السيمفونيات والمقطوعات الموسيقية فتتغير الألحان وتختلف الأنغام فيسعى كل منها إلى البحث في بواطن الذات ودروب الإنسانية الوعرة في عنفوانها وهيجانها وهدوئها وآمالها وتطلعاتها فكلاهما فن للحياة

أراد واسيني الأعرج أن يروّض نص حكايته ويستميله من خلال إغرائه بعالم يعجّ بالنوتات والألحان والأنغام، فأراد العزف على الكلمات ألحانا للحياة في ظل وباء صحي وسياسي وثقافي تحكمه عصابات مفيوية تؤرخ للهلاك والموت والفناء، فتشكّل عالم سردي برزخي يستحضر من الكلمات والأنغام ما يحقّق تميّزه وتفرّده.

تصدّر اسم صاحب الرواية –واسيني الأعرج-واجهتها معلقا في السقف بنفس لون عنوان الرواية وهو اللّون الأبيض وباللغة الفرنسية وهذا إنّما دليل على علو شأنه ومنزلته فقيمته قيمة متعالية فوق قيمة النص لأنّه هو من أوجده، فيفتخر ويخبر بأنّه هو" من كتب" أي "أنا كتبت"فالنظام القولي لا يكسب نصيّته من بنيته الداخلية فقط وإنّما يتدخل فيها المبدع أيضا، يقول حميد الحمداني :"كما أنّ ترتيب واختيار مواقع كل هذه الإشارات لابد أن تكون له دلالة جمالية أو قيمية، فوضع الاسم في أعلى الصفحة لا يعط

الانطباع نفسه الذي يعطيه وصفه في الأسفل ولذلك غلب تقديم الأسماء في معظم الكتب الصادرة حديثا في الأعلى"[14]

إلاّ أنّه ما انفك أن أعاد كتابة اسمه بحجم أكبر وهذه المرة باللون الأصفر ما يعكس نرجسية الكاتب وإصراره على امتلاك النص بل يهبه سلطة عليا يصعب تجاوزها، إلاّ أنّ اسم المؤلف يبقى علامة لغوية لا تحتاج إلى التأويل أو الاطلاع على أبعادها الدلالية والخفية، إلاّ أنهّ وفي كل مرة لا يخفي انبهاره وحبّه الشديد للغة الفرنسية بكتابته لاسمه باللغة الفرنسية إلاّ أنّه تحدث في حوار أجرته معه الدكتورة زينب الخضري واستضافته هيئة النشر والترجمة عن تجربته في المزاوجة بين اللغتين العربية والفرنسية في أعماله ومؤلفاته مشيرا الى أنّ ظروف النشأة في الحقبة الاستعمارية جعلت غالب أبناء جيله يتقنون الفرنسية منذ نعومة الاظافر إلاّ أنّه تحاشى أن يكتب بها أعمالا أدبية وروائية إلاّ أنّه اضطر إلى ذلك أثناء حقبة التطرف الديني في الجزائر في تسعينيات القرن الماضي، والتي جعلت أصحاب دور النشر والمكتبات وحتى الأدباء تحت طائلة الاعتداء. مؤكدا اختلاف العالمين اللغوين من حيث التراكيب والأوصاف وحتى "الثيم" والإيقاعات[15].

بعد اسم المؤلف مباشرة يأتي العنوان بنفس اللون الذي كتب به اسم المؤلف ،فاحتلّ وسط الصفحة وكتب بحجم كبير فشغل الصدارة في صفحة الغلاف الأولى، متربعا بذلك على عرش الكتاب غاويا لقرائه فهدفه اقتناص الأنظار واستمالة القراء كما يؤهله هذا الموقع المتميز ليصبح سلطة عليا على كل الملفوظات الأخرى التي تشكّل في تلاحمها وتكاملها وتناغمها العناصر المكونة للعمل الروائي في شموليته، بالإضافة إلى أنّه كُتب بنفس خط كتابة اسم المؤلف، ولو توقفنا قليلا عند مسألة الخط لوجدناه مادة بصرية مهمة تساعد في تأويل العنوان، فالخط ليس مجرد زينة بل هو روح اللغة خاصة عندما يوظف من أجل غاية معينة "فأهمية الخط وقيمته تأتي من بعده الغني ومن اعتباره لوحة فنية تحمل أبعادا كثيرة تتجاوز الفني والجمالي إلى الثقافي والاجتماعي"[16]، والملاحظ على الخط الذي كتب به اسم "واسيني" وعنوان الرواية "ليليات رمادة" اصطباغه بصبغة تراثية صارخة كتلك الخطوط التي كانت تكتب بها المخطوطات قديما وما زاد في بروز هذه الصبغة هو إتباع الحروف بحركات (السكون والفتحة) ،فأوّل ما تقع أعيننا على العنوان نحس بعبق تراثي يأخذنا إلى مكان بعيد في الذاكرة أو بنوع من التساؤل فيفتح أمامنا باب انتظار ما سيأتي بين ثنايا هذه الرواية.

يعدّ العنوان مفتاحا لعالم الكتاب فكما قيل قديما "الكتاب ... يعرف من عنوانه" فهذا القول يحمل أكثر من دلالة وينفتح على أكثر من جواب فأوّل ما يلفت انتباهنا أثناء محاولتنا اختيار الكتاب هو العنوان الذي يلمع كضوء دال ومرشد ودليل يستوقفنا لتناول كتاب بعينه وتصفحه وانتقائه وفي الحين ذاته نمر على كم هائل من العناوين التي لا تحمل هذه الإشارة الصوتية اللافتة الجذابة، فأوّل ما يجعل القارئ يخوض غمار الكتاب توفر شرطين **اسم الكاتب** الذي يجعله على بيّنة من منتج الكتاب ،إضافة إلى سلطة العنوان التي تمثل سلطة عليا في دفع القارئ وتحفيزه على القراءة[17]

تحمل الرواية عنوان "ليليات رمادة" وهو يحيل إلى اسم الشخصية الرئيسة في العمل والتي اتخذت على عاتقها دور نقل الأحداث والمشاركة فيها، فرمادة إشارة إلى عالم الأمراض والأوبئة واستدعاء لعام الرمادة في تراثنا العربي الإسلامي فقد جاء في طبقات ابن السعد[18]من رواية الواقدي في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ:" وقعت بالمدينة وما حولها من القرى مجاعة شديدة، وكان ذلك في 18هـ بعد عودة الناس من الحج، فحبس المطر من السماء وأجدبت الأرض، وهلكت الماشية، واستمرت هذه المجاعة تسعة أشهر، حتى صارت الأرض سوداء فشبهت بالرماد، ويبقى العنوان هو العتبة الأخطر من جملة عتبات النص وتكمن هذه الخطورة في علاقته بكل من النص والقارئ ،إذ يهب النّص كينونته بتسميته وتعيينه وإخراجه من فضاء المجهول إلى فضاء المعلوم ولهذا ارتهن هذا النص بتسميته أي بعنوانه ليكون له هوية وتعيينا في العالم الإبداعي.

إنّ اسم رمادة يشي منذ الوهلة الأولى بدلالة الموت والفناء ويؤكد انفتاح النص على دلالات الأوبئة والمجاعات والكوارث الإنسانية ليحيل مباشرة إلى زمن الكورونا أو كوفيد 19 والذّي بات ينخر جسم العالم ككل وهو الزمن الحقيقي لكتابة هذه الرواية حين انعزل الناس عن العالم الخارجي لتفادي الموت والفناء إلاّ أنّ مبدعنا اختار الكتابة للمقاومة والتفاعل مع الناس تقول رمادة:**"منذ فترة و أنا مثل السبعة مليارات من البشر في العالم والخمسين مليون من الانتحاريين في كوفيلاند الذين لا يحكمهم أي حجر أو أمر سجينة فيروس متوج بالموت شكله وردة بعشرات التيجان وعمقه عتمة قاتمة [19]"**.وغير بعيد عن هذا نجد واسيني يصف لنا واقعا كورونيا نعيشه بكل تفاصيله تقول رمادة في الصفحة التاسعة (9)من الرواية **"ليال كثيرة مضت فقدت فيها الكثير من جيران أهلي الكثيرين ماتوا من الخوف من الوباء وليس من الوباء، ظلوا يرتعشون خوفا من ظلامه**

ويتفاخرون بمعرفة كلّ تفاصيله، بل حتى باكتشاف اللقاح المنتظر واسم المخبر ومكانه والبلاد التي ظهر فيها والعالم المكتشف، العزلة تضخم الأنا وتجعلها تداوي عجزها بمعرفة كل شيء" هي تفاصيل الحجر التي عاشها كل البشر على بقاع الأرض أراد واسيني أن يعود لها لربما يسرد هذا الزمن بحيثياته الواقعية ويرسم عليه أفقه التخييلية التي تمضي بالنص إلى الضفة الأخرى فتعبّر عن إنسانية الإنسان في أسمى صورها.

بل وأبعد من هذا يظهر واسيني في إحدى مقاطع الرواية أعراض المرض التي باتت كابوسا يأرّق راحة كل البشر **" في بيتنا أيضا تغيّر الوضع كلّما عطس أحدهم أو سعل أو ركبته حرارة عادية تغيّر نظام البيت وساد الخوف إلى غاية وصول طبيب العائلة فيريح الجميع بابتسامته:لا مشكلة مجرد انفلونزا عابرة،ستزول بمجرد تناول الأدوية،فتعود شيئا فشيئا حركة البيت إلى نظامها الطبيعي."**[20]، من أجل هذا المعطى جاءت شخصية رمادة كرمز للمقاومة والإصرار ومواجهة الخطر والاضطهاد على اختلاف صوره ، فهي شخصية متمردة تقول في الصفحة الثامنة(8)من الرواية "**اخترت أن أقاوم الموت بالحياة لا لأكون بطلة، لكن فقط لأكون رمادة امرأة خارج نظام العبودية ،لا سلاح لي سوى الحياة، قررت أن أقتل أعدائي جميعا ببقائي حيّة، موت عدوك أن يراك حيا وجميلا وناجحا ،أعتقد أنّه أجمل انتقام يمكن أن يمارس ضد المهزومين السيئين"**، وتتضح نفس أبعاد هذه الشخصية في خطابها مع حبيبها شادي :من أين أبدأ هذا الحنين وكيف أتغلب عليه؟ كيف أكتبك وأكتبني أمامك وأنا أقاوم موتا أصبح حقيقتنا الوحيدة ليليات شوبان ترفعني نحو سمائك لكنها غير كافية لإنقاذي من قلق الغياب"[21]

تدور أحداث الرواية في مكان تخطى حدود المكانية في "كوفيلاند" وهي مدينة بمثابة وطن كما يشير واسيني الأعرج في بداية نصه فقد جاء هذا الفضاء الافتراضي كرمز للمقاومة والصمود بسبب تاريخها الحافل بالوباء والمرض " يقول واسيني في الصفحة 3 من الرواية " **قبل أن تموت كوفيلاند ممزقة إلى أجزاء صغيرة، كانت مثالا للحياة والاستمرار. قاومت كل الأوبئة منذ القرن الميلادي الأول، وما تزال مستمرة في قتالها حتى اليوم استعارت هذه المدينة أسماءها التاريخية المتتالية، من الأوبئة والمحن "** ويتحدد فعل الصمود في ملامح الشخصيات التي ارتسمها واسيني حيث ترفض الساردة الانصياع لما يحيط بها من وباء يتربّص بها ، وزوج وأب يصرّان على الاضطهاد فواجهة كلّ هذا بالموسيقى والفن والجمال إذ حاولت أن تعيش في عالم منفصل يشع بالأمل والحياة والعطاء والحب

وهذا ما يعكس فعل المقاومة والتجاوز باعتماد الذكاء والتسامح في رسم العلاقات بينها وبين من هم حولها

نعتقد من خلال قراءتنا للراوية أن مدينة كوفيلاند قد تكون أي عاصمة عربية "سوريا، لبنان، طرابلس، الجزائر..." اختلفت مواقعها الجغرافية إلاّ أنّ ملامحها الباهتة متشابهة إذ يحفو النص بمجموعة من الإغواءات المضللة من جهة والمبررة من جهة ثانية فيقف القارئ حياله منبهرا حائرا بين تناقض صوره الفنية التي ارتأت أن تقدم قصة حب جميلة جمعت بين الساردة "رمادة"وشادي الموسيقار العالمي وهنا يتجسد عالم افتراضي جميل قيمه التسامح والحب والحياة والكرامة، وبين عالم مقزز مليء بمشاهد الموت والقتل تقول رمادة" **للموت رائحة هي خليط من الفورمول والكحول الطبي، ومعجون الخمائر القديمة .في هذا العفن المحيط بي من كل الجهات، أحلم كما الجميع، أن أفتح عيني وأغلقهما، ليكون كل ما حدث ويحدث، مجرد كوابيس عابرة. لا أريد أن أتركني عرضة لمختلف الوساوس القاهرة، لكن لا يمكنني أن أغفل عن الموت والا ثانية، رائحته تسبقه. أشمها أحيانا حتى داخل بيتي وأنا مع كريم، وبيت عائلتي، وحتى في ألبسة والدي عندما أزوره وأنتظر عودته من الصالة. أرى الموت، وأشمه، تحت الطاولات وفوقها، في المطبخ، في مختلف غرف النوم. كل صباح، أغسل الأرضية بسائل الجافيل المعطر، والديتول، والكحول الطبي، كما تفعل المنظفة كل صباح في مخبري"**[22]، وهنا تظهر ملامح الموت جراء الوباء والمرض ولكن حتى صور الموت في الرواية تعددت ففي سياق آخر مشهد لاغتيال الدكتور هنبري الذي مثل أيقونة الخلاص في الرواية باكتشافه اللقاح للفيروس تقول رمادة:" **فقد امتدت يد الغدر صباح اليوم، في الساعة السادسة والنصف، بالضبط، إلى البروفيسور هبري، وهو يستعد للالتحاق بعمله. فقد هجم عليه أربعة أفراد لم يتركوا له أي فرصة للهرب. قاوم بمحفظته والكتب التي كانت في يده، لكنها لم تكن كافية. 15 رصاصة، 9 ملمتر، من سلاح إيطالي بريتا 92 .خمس رصاصات قاتلة، 3 في الرأس، واحدة في القلب، وأخرى في الرقبة. البقية موزعة على كامل الجسد."**[23] ونستحضر في هذا السياق صور العصابات المافيوية والإرهابية التي طغت على نصوص واسيني الأعرج فيما سبق وخاصة في رواية مملكة الفراشة اذ يغتال الأب زوبير صاحب مخبر الأدوية من طرف ما فيا الأدوية.

في ظلّ هذه النزاعات الاجتماعية والثقافية التي شكّلت عوالم الرواية يشعر القارئ بنوع من التماهي مع عاصمة الأوبئة هذه فتنتابه مشاعر متناقضة تأخذ به إلى طرح وابل من الأسئلة المحيرة فتبعث به إلى الوقوف بين ضفتين ضفة تطغو عليها صور الموت والخوف والهلاك هي صور ذلك العالم الموبوء سياسيا وإداريا وأخلاقيا واجتماعيا وصحيا،تتحكم فيه عصابات مفيوية ترسّخت في بنية النظام بل نخرت جسده حتى التلاشي معه، وكذا صورة الأب والزوج اللّذان مثلا داخل الرواية السلطة الذكورية المتجبرة القاهرة للحريات تقول رمادة في الصفحة 21 من الرواية " **تضاعف تطرف والدي أكثر يوم التحق بالحركة الإسلامية المتطرفة التي احتلت المدن والقرى بزبانيتها و أنبيائها الجدد. ثم انتقل تطرفه إلى العائلة بشكل آمر وعدواني. لم يكن راضيا عن كونه أبا للبنات، قبل مجيء بكر،"** وبين الضفة الثانية التي فتحت أفقا جديدا للحياة والأمل الذي بعث بعودة الطبيب هانري من أمريكا وكذا عودة الموسيقار العالمي "شادي" والأخ بكر المحب للحياة والرقص ،فهذه المعطيات هي التي جسّدت فعل المقاومة والصمود والخلاص من الوباء بصوره المتعددة .

جاءت رواية "ليليات رمادة" لواسيني الأعرج لتعري وتكشف حقائق الأنظمة المافيوية التي تزرع الفساد وتتاجر في كل شيء وفي مختلف القطاعات وإخفاقات المؤسسة السياسية في الجزائر وفي العالم العربي على حد سواء وما الجائحة إلاّ غطاء لتمرير أنساق ثقافية مختالة هاوية في قاع النص ،فقد حاول واسيني الأعرج تأسيس مرجعية جديدة في مجتمع كوني شامل يتذوّق الفن ويحب الحياة ويصبو إلى الارتقاء بذاته وإنسانيته.

خاتمة:

تنبثق الكتابة الإبداعية من بوتقة اللاّمألوف واللاطبيعي أي كل ما يثير ويزعج العادات أو يخلق اضطرابا في الحياة اليومية للإنسان فهذه الظروف غير العادية التي نعيشها تشكّل إطار مرجعيا مهما فريدا من نوعه، فلطالما تحدّث الأدباء والكتّاب عن الأوبئة وقد كتبت روايات وبائية عظيمة كالطاعون لألبير كامو، إلاّ أنّ الاختلاف بينها وبين ما فرضته الجائحة يكمن في أنّ الأولى تحدّثت عن الأوبئة كرمز للشر في ظل سيادة ديكتاتورية اقتصادية أو سياسية معينة كما أنّها وجدت في زمن معين وفي بيئة محددة على عكس الجائحة التي زحفت في العالم ككل؛ في حين كتابات كوفيد 19 تتحدث عن صراع

الإنسان مع الإنسان والانتصار لفكرة التصالح بعيدا عن التناحر والعودة للذّات بعدّها هي المترجمة لإنسانية الإنسان فجاءت لتطهير العواطف. والنفوس والبحث عن الإنسانية المفقودة ، لذا فقد يأخذ أدب الجائحة بعدا فلسفيا ينفتح على تساؤلات عميقة.

_جاءت رواية ليليات رمادة لواسيني الأعرج مفجوعة بالألم تجمع بين الأدبي والطبي وتقدم صورة عن الأدب في ظلّ الأوبئة وكيف يمكن للكتابة أن تضمّد جروح الزمن، هي رواية تحكي أسطورة النضال من أجل البقاء ضد الظروف الطبيعية القاسية وإخفاقات المؤسسات السياسية في الجزائر وغيرها من الدول العربية

_إنّ التّميز الذي حظي به واسيني في كتابته "لليليات رمادة" لا يكمن فقط في تسريده لزمن الوباء والكتابة في خضم الجائحة بل مغامرته في كتاباته في الفضاءات الافتراضية محاولا تخليص قرائه من عتمة العزلة والمرض فالقارئ للرواية يجد نفسه شاء أم أبى مشاركا بوجدانه لهذا المصير المشترك في الألم واللّذة والفرح والحزن وفي المتعة والجمال.

_تعد الكتابة عند واسيني الأعرج شكل من أشكال مواجهة الخوف فهو فعل مغامرة، ومقاومة وتجاوز مقاومة للشرط التاريخي الزمني من جهة وفعل تجاوز للحتمية الوبائية التي نعيشها ونتمنى تجاوزها من جهة ثانية .يقول واسيني في صفحته على الفايسبوك وبعد انتهائه من كتابة الرواية " كلّما انتهيت من كتابة رواية خرجت منهمكا مريضا وهشّا مثل غيمة أصيبت بالدّوار في علوها الشاهق أو كمن عاش زمنا طويلا في عمق حاضنة واقية ويحتاج إلى وقت كبير لكي يستعيد علاقته الطبيعية بالأشياء ويتدرب من جديد على الحياة".

---

[1] _ رولان، بارت(1992).**لذّة النّص**، تر:منذر عياشي. مركز الانماء الحضاري،ص39

[2] المرجع نفسه.

[3] قواسمة،محمد عبد الله(1مايو2020)جائحة كورونا والرواية، مجلة الدستورwww.addustour.comتاريخ المشاهدة:

[4] علي، عزيزة(18أفريل2020)روائيون عرب وأوروبيون يرون أن الكتابة في زمن كورونا ستكون ضعيفة، مجلة الغد.https://alghad.com تاريخ المشاهدة:

[5] المرجع نفسه.

[6] المرجع نفسه.

[7] البدوي، نورة (19 افريل2020)كورونا هل تحدث تغييرا في الرواية العربية ،جريدة ايلاف الالكترونية https://elaph.com.تاريخ المشاهدة: 2020/11/10الساعة:9:00صباحا.

[8] المرجع نفسه.

[9] علي، روائيون عرب وأوروبيون، مرجع سابق.

[10] عبد الباقي، جريدي (1 اكتوبر 2020)انشائية القيم في ليليات رمادة لواسيني الاعرج، تسريد الوباء على ايقاع الموسيقى، مجلة أنفاس نت https://anfass.org تاريخ المشاهدة:

[11] خلف بشير (2009)الفنون لغة الوجدان، الجزائر، دار الهدى للنشر والتوزيع، ص48.

[12] بورنوف، عالم الرواية، 1982، ص40

[13] (الريحاني)

[14] الحمداني، 2000، ص60)

[15] الانصاري،2020)

[16] (جكيب، ص533)

[17] (أشهبون، ص11)

[18] طبقات ابن سعد310/3

[19] . الأعرج، واسيني(اكتوبر2020).**ليليات رمادة.** بيروت، دار الآداب. ص7.

[20] **المرجع نفسه، الصفحة نفسها.**

[21] المرجع نفسه،ص5.

[22] **المرجع نفسه،ص17.**

[23] المرجع نفسه،ص397.

قائمة المصادروالمراجع

_الأعرج، واسيني(اكتوبر2020).**ليليات رمادة.** بيروت، دار الآداب.

_ أشهبون عبد الملك (2011). **العنوان في الرواية العربية**، النايا للدراسات والنشر والتوزيع ،محاكاة للدراسات والنشر والتوزيع .

-البدوي، نورة (19 افريل2020)كورونا هل تحدث تغييرا في الرواية العربية ،جريدة ايلاف الالكترونية https://elaph.com.تاريخ المشاهدة: 2020/11/10الساعة:9:00صباحا.

-جكيب، محمد التونسي إشكالية مقاربة النص الموازي وتعدد قراءاته، عتبة العنوان أنموذجا(أطروحة الدكتوراه)، المغرب جامعة محمد الخامسwww.alapsa.edu.fr.تاريخ المشاهدة:2017.

- رولان بورنوف، واوئيليه ريال (1982)،**عالم الرواية**. تر:فريد انطونيس.، بيروت، منشورات عويدات.

_الريحاني، كمال، فن الرواية ورواية الفن الموسيقى والغناء، مجلة دروب ،الفرار بنت البحر https://search.madumah.com.

-حميد، الحمداني(2000)بنية الخطاب السردي من منظور النقد الادبي العربي، الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي.
_خلف بشير (2009)الفنون لغة الوجدان، الجزائر، دار الهدى للنشر والتوزيع.
_ رولان، بارت(1992).**لذّة النّص**، تر:منذر عياشي. مركز الانماء الحضاري
_عبد الملك ،مرتاض(1998)نظرية الرواية،بحث في تقنيات السرد، الكويت سلسلة عالم المعرفة.
_قواسمة،محمد عبد الله(1مايو2020)جائحة كورونا والرواية، مجلة الدستورwww.addustour.comتاريخ المشاهدة:
_علي، عزيزة(18أفريل2020)روائيون عرب وأوروبيون يرون أن الكتابة في زمن كورونا ستكون ضعيفة، مجلة الغد.https://alghad.com **تاريخ** المشاهدة .
_عبد الباقي، جريدي (1 اكتوبر 2020)انشائية القيم في ليليات رمادة لواسيني الاعرج، تسريد الوباء على ايقاع الموسيقى، مجلة أنفاس نت https://anfass.org تاريخ المشاهدة: .
_معاوية ،الانصاري(8يوليو2020)واسيني الاعرج يكشف رهاناته في الكتابة الروائية،مجلة الرياض، https://www.alriyadh.com/1830520 https://alghad.com/